

مقدمة

إن ما يدرج على السنة العوام وما تحفظه الذاكرة من أمثال تشتمل على معنى «فرعون» تنم عن حس ديني أو سياسى عال إذا ما أدركنا مدلول هذه الأمثلة وما يراد منها. ومن قبيل ذلك ما صار مثلاً أو قولاً دارجاً من أن «من تحسبه موسى تجده فرعون» فى دلالة عن حس إيمانى للتمييز بين الثنائية المعهودة الحق والباطل، ودلالة عما يمكن أن يحدثه الانخداع فى الآخر من صدمة.

وعلى غرار هذا الحس الإيمانى نجد الحس السياسى واضحاً فيما يتناقله العوام عن السبب فيما وصل إليه الفرعون من جبوت وطغيان أو ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً «الفرعنة» أنه لم يجد من يقف فى وجه طغيانه ويقاومه، ومن يعيده إلى صوابه أو يضرب على يديه. ومع تسليمنا بهذا الحس الإيمانى أو السياسى الظاهر إلا أن البعض قد يقع فى شرك التعميم بإطلاقهم مسمى «الفرعنة» أو «الفرعونية» على عمومه دون إدراك ماهية هذا اللفظ أو هذا اللقب وحدوده.

من هنا وجب تصحيح هذا المفهوم وإزالة اللبس المصاحب له فى أذهان الكثيرين فى محاولة متواضعة لبلورة «الفرعنة» أو «الفرعونية» وقولبتها فى قالب يمكن تحديدها والتعرف إليها من خلاله، ومن خلاله فقط دون أحكام جزائية ودون تعميم غير مبنى على الدقة والحيدة، معتمدين فى ذلك على ما أوردته نصوص العهد القديم من إشارة إلى فرعون وما كان منه تجاه بنى إسرائيل، ثم وبصورة أكبر على ما أوردته القرآن الكريم من جملة الصفات التى وصف بها فرعون، وكشف عنها فى سياق تناوله لما دار بينه وبين موسى عليه السلام وما ساقه من إشارات عنه وعن غيره من إسراف فى الكفر وتجاوز فى الطغيان، لنخرج من هذا التناول إلى جملة من الصفات تبلور وتؤطر لما يمكن أن نطلق عليه بالفكر الفرعونى أو العقيدة الفرعونية. وتلك التى يمكن تحديدها وتعريفها بأنها ذلك الخليط من الصفات المذمومة التى تجمعت معاً فى شخصية واحدة كانت رمزاً لها ووقفاً عليها. ونعنى بهذه الشخصية فرعون موسى ذلك الفرعون الذى لم يذكر العهد القديم اسمه، كما لم يسمه القرآن. وربما يرجع ذلك إلى ما يتصف به المنهج القرآنى عند تناوله للقصص من التأكيد

على جانب العبرة والعظة بأن تتحول الحادثة التاريخية إلى مادة للاتعاظ والاستشهاد، وكون القصة تأتي في سياق الغرض الدينى فالقرآن كتاب دعوة دينية لا كتاب للتاريخ، والقصة إحدى وسائله لتبليغ هذه الدعوة.

ولم يكن لفظ فرعون يدل على جنس أو على طغيان الحكم، كما قد يفهم خطأ أحياناً. وإن وصف القرآن الكريم والتوراة للفرعون الذى عاصر موسى بالتجبر والطغيان وادعاء الربوبية - مع وجوب التسليم به - ليس من المقترض تعميم صفاته هذه على كل الفراعنة. كما لا يمكن تعميم هذه التسمية على المصريين القدماء جميعهم. وإنما يمكن أن نطلق لفظ فرعون على كل حاكم يتصف بمثل ما اتصف به هذا الفرعون من صفات والتي صارت علماً عليه وصار بها موسوماً.

وجملة هذه الصفات والتي أشار إليها القرآن فى بيان واضح صريح هى صفات تكاد تكون متشابهة ومتداخلة لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. تبرز منها صفات الاستعلاء والتعالى والكبر والتكبر والطغيان والإسراف والضلال والتضليل والإجرام والإفساد والكذب والجهل وغيرها، والتي قد شاركه فيها أو فى بعض منها حاشيته وملؤه أو بعض قومه ليدخلوا فى إهاب «الفرعونية» أو «الفكر الفرعونى». غير أنه تفرد بأكثر هذه الصفات تجاوزاً وجوراً ونعنى بها ادعاءه الألوهية والربوبية فيقول «ما علمت لكم من إله غيرى» و «أنا ربكم الأعلى» ليضع نهاية لذلك الإسراف والطغيان والمروق وليأخذ الله الأخذة الرابعة نكال الآخرة والأولى ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة هود - الآية ١٠٢].

وفى إطار تناولنا لهذه الفرعونية والكشف عن هويتها ومحاولة تحديدها، نتناول تلك التربة التى نمت فيها مثل هذه العقيدة أو هذا الفكر ومكنت له من أن ينشأ ويترعع ليصل إلى هذا الحد من الإسراف والتجاوز. كما سنحاول تناول الفروض التى تتناول وتحاول تحديد كنه هذا الذى أصل لهذه الفرعونية واتصف بها ونعنى به ذلك الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام وأشار إلى صفاته القرآن الكريم والعهد القديم.

ويصحب هذا التناول محاولة البحث عما سكنت عنه القرآن فيما أورده العهد القديم دون التعويل الكامل على كل ما أورده من نصوص لما يمكن أن يكون قد أصاب بعضها من تحريف أو جنوح. ثم البحث عن براهين مادية ملموسة فيما خلفه لنا التاريخ من آثار يمكن الاستدلال منها على كثير من الحقائق والأدلة التى تدعم أو تنفى ما قد تصل إليه الدراسة النظرية.

وبناء على ما سبق من عرض فإن هذا الكتاب يتناول مكانة الملك فى مصر القديمة وقدسيتها، وكيف نسب نفسه إلى الآلهة فصار ابناً لها، وكيف أُلِه بعد موته، والبحث فى كنه لقب «فرعون» ومدلوله وأصله، و «الفرعونية» وما تتصف به من صفات استحققت بها اللعنة والذم، ثم نخرج إلى دراسة لبعض الآراء والفروض التى حاولت تحديد هوية ذلك الفرعون الذى تنسب إليه هذه الفرعونية الملعونة. متمنياً أن أكون قد أوردت شيئاً للقارئ يمكن أن يصل منه إلى معرفة حقيقة ما، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل.

د. محمد أبو الفتوح محمود غنيم